الْإِنْسَانُ سَيِّدُ الْمَخْلُوقَاتِ

1 - الْتَقَى أَسَدٌ بِقِطَّةٍ فَقَالَ لَهَا : « أَهْلًا بِكِ يَا عَزِيزَتِي، إِنَّكِ تُشْبِهِينَنِي وَلَكِنَّكِ صَغِيرَةٌ فَمَا هُوَ اسْمُكِ ؟ »، فَقَالَتْ : « أَنَا الْقِطَّة، أعيش مَعَ الْإِنْسَانِ سَيِّدُ الْمَخْلُوقَاتِ » .

فَقَالَ الْأَسَدُ : « وَهَلْ فِي الْمَخْلُوقاتِ سَيِّدٌ غَيْرِي؟ سَأُرِيكِ أَيَّتُهَا الْحَمْقَاءُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقِفُ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي وَجْهِي! ».

ثُمَّ رَأَى حِمَارًا وَحِصانًا وَجَمَلًا فَقَالَ لَهُمْ: « مَنْ مِنكُمُ الْإِنْسَانُ ؟ »، فَقَالُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: « لَا أَحَد! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُسَخِّرُنَا لِخِدْمَتِهِ وَيَرْكَبُنَا وَيَحْمِلُ عَلَيْنَا الْأَثْقَالَ »، فَقَالَ الْأَسَدُ بِكِبْرِيَّاءٍ: « هَذَا ظُلْمٌ سَأَرْفَعُهُ عَنْكُمْ مَتَى رَأَيْتُ الْإِنْسَانَ ».

2 - نَظَرَ الْأَسَدُ فَرَأَى بَقَرًا وَغَنَمًا وَطُيُورًا مُخْتَلِفَةً فَقَالَ لها: « مَنْ مِنكُمُ الإِنْسَانُ؟ » فَقَالُوا: « إِنَّ الْإِنْسَانَ يُسَمِّنُنَا لِيَذْبَحْنَا وَيَأْكُلَنا »، فَقَالَ الْأَسَدُ: « سَأَبْحَثُ عَنْهُ حَتَّى أَقْتُلَهُ وَأَكْفِيكُمْ شَرّهُ ».

3 - رَأَى الْأَسَدُ رَجُلاً يَجْمَعُ الْحَطَبَ فَقَالَ: « هَلْ أَنْتَ الإِنْسَانُ ؟ ».

- قَالَ الْحَطَّابُ : « نَعَمْ ... » .
- فَأَجَابَ الْأَسَدُ: « سَأَنْتَقِمُ مِنْكَ فَاسْتَعِدَّ لِلْبِرَازِ! ».
- قَالَ الْحَطَّابُ: « أَيْنَ عَقْلُكَ يَا مَلِكَ السِّبَاعِ ؟ أَأُبَارِزُكَ وَقُوَّتِي لَيْسَتْ هُنَا؟ ».
- قَالَ الْأَسَدُ: « مَا هِيَ قُوَّتُكَ؟ ».
- فَقَالَ الرَّجُلُ: « إِنَّهَا الذَّكَاءُ ».
- فَقَالَ الْأَسَدُ: « أَحْضِرهَا فَلَا بُدَّ مِنْ مُبارَزَتِكَ »
- فَقَالَ الإِنْسَانُ: « أَنَا لَا أَثِقُ بِكَلامِكَ، وَأَخَافُ أَنْ تَهْرُبَ إِذا ذهَبْتُ لِإِحْضَارِ قُوَّتِي، فَارْبِطْ نَفْسَكَ إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ بِهَذَا الْحَبْلِ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ بِقُوَّتِي ».

قَبِلَ الْأَسَدُ ذَلِكَ وَأَخَذَ يَرْبِطُ نَفْسَهُ إِلَى الْجِذْعِ وَالْحَطّابُ يُساعِدُهُ فِي شَدّ الْحَبْلِ إِلَى أَنْ أَوْثَقَهُ جَيّدًا فَقَالَ لَهُ: « هَذِهِ قُوَّتِي حَضَرَتْ، وَقَدْ اسْتَعْمَلْتُ ذَكَائِي فَغَلَبْتُكَ ».

ثُمَّ انْهَالَ عَلَيْهِ ضَرْبًا بِالفَأسِ حَتَّى قَتَلَهُ.

علي بابا في الغابة

يُحْكَى أَنَّهُ كَانَ فِي بِلادِ فَارِسَ أَخَوَانِ شَقِيقَانِ : قَاسم وَعَلي بَابا، وَكَانَ وَالِدُهُمَا تَاجِرًا غَنِيًّا ، مَاتَ وَتَرَكَ ثَرْوَةً طَائِلَة، اسْتَوْلَى قَاسِم عَلَى هَذِهِ الثَّرْوَة وَتَرَكَ أَخَاهُ عَلي بَابًا فِي فَقْرٍ شَدِيد، وَقَدْ كَانَ يُعَامِلُهُ مُعَامَلَةً قَاسِيَة ، لا رَحْمَةَ فِيهَا وَلَا شَفَقَةٌ ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ هَذَا فَإِنَّ علي بابا لَمْ يَحْقِد عَلَى أَخِيهِ، وَلَمْ يَسْتَسْلِم لِلْيَأْسِ، بَلْ اعْتَمَدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي كَسْبِ قُوتِهِ وَقُوتِ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَصَارَ يَذْهَبُ كُلَّ صَبَاحٍ إِلَى الْغَابَةِ فَيَحْتَطِبَ، ثُمَّ يَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَى حِمَارِهِ وَيَعُودُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَيَبِيعُ الْحَطَبَ وَيَشْتَرِي بِثَمَنِهِ طَعَاماً لِعَائِلَتِهِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ انْطَلَقَ علي بابا إِلَى الْغَابَةِ لِيَحْتَطِبَ كَعَادَتِهِ فَإِذَا بِهِ يَسْمَعُ ضَجَّةً شَدِيدة آتِيَةً مِنْ بَعِيدٍ، ثُمَّ أَخَذَتِ الْأَصْوَاتُ تَقْتَرِبُ وَتَعْلُو، فَتَسَلَّقَ شَجَرَة عَالِيَة وَتَطَلَّعَ إِلَى مَصْدَر الصَّوْتِ، فَشَاهَدَ غُبَارًا يَتَصَاعَدُ إِلَى عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ انْجَلَى هَذَا الْغُبَارُ عَنْ أَرْبَعِينَ فَارِسًا يَتَقَدَّمُهُم زَعِيمُهُم، كَانَ الْفُرْسَانِ يَمْتَطُونَ خُيُولاً تَنْهَبُ الْأَرْضِ نَهْباً، وَيَحْمِلُونَ سُيُوفَاً وَرِمَاحًا تَلْمَعُ تَحْتَ أَشِعَةِ الشَّمْسِ، وَكَانَتْ تَبْدُو عَلَيْهِمْ مَظَاهِرُ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ.

وَصَلَ الْفُرْسَانُ إِلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَة وَسَطَ الْغَابَةِ فَتَرَجَّلُوا وَتَقَدَّمَ زَعِيمُهُم وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُخَاطِبًا الصَّخْرَة: « افتحْ يا سِمْسِم »، وَإِذَا بِالصَّخْرَةِ تَنْزَاحُ عَنْ كَهْفٍ كَبِيرٍ، دَخَلَهُ الْفُرْسَانُ بَعْدَ أَنْ رَبَطُوا خُيُولَهُم وَمَكَثُوا فِيهِ مُدَّةٍ ثُمَّ خَرَجُوا، وَصَاحَ زَعِيمُهُم: « أغلِق يا سِمْسِمْ »، فَرَجَعَتِ الصَّخْرَةُ إِلى مَكَانِهَا الأَوَّل، وَعِنْدَئِذٍ رَكِبَ الْفُرْسَانَ خُيُولَهُم وَعَادُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا.

غَابَ الْفُرْسَانُ عَنِ الأَنْظَارِ، فَنَزَلَ علي بابا مِنْ أَعْلَى الشَّجَرَة وَالدَّهْشَةُ تَكَادُ تَعْقِد لِسَانَه، ثُمَّ قَصَدَ الصَّخْرَة وَوَقَفَ أَمَامَهَا يَتَأَمَّلُهَا مُتَسَائِلاً: « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَرَّكَ هَذِهِ الصَّخْرَة الْهَائِلَة فَوْرَ النُّطْقِ بِجُمْلَةٍ وَاحِدَة ؟!».

نادى علي بابا بأعلى صوته: « افتح يا سمسم »، فَإِذَا بِالصَّخْرَةِ تَنْزَاحُ مَرَّةً ثَانِيَة فَدَخَلَ علي بابا الْكَهْفَ وَالْخَوْفُ يَتَمَلَّكُهُ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَنَقَّلُ مِنْ قَاعَةٍ إِلَى أُخْرَى حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَاعَةٍ فَسِيحَةٌ وَجَدَ فِيهَا كَمِيَّاتٍ لا تُحْصَى مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالأَحْجَارِ الْكَرِيمَة، فَفَرَكَ عَيْنَيْهِ، لِيَتَنَبَّهُ وَيَسْعَدَ بِهَذَا الْحُلْمِ الْجَمِيلِ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا تَأَكَّدَ أَنَّهُ لَيْسَ في حُلْم، وَأَدْرَكَ أَنَّ أُولَئِكَ الْفُرْسَانَ عِصَابَةٌ مِنَ اللُّصُوصِ تُخَبِّئُ مَا تَسْرِقُهُ دَاخِلَ هَذَا الْكَهْفِ السِّحْرِي الكبير.

لَمْ يُضَيِّع علي بابا الفُرْصَةَ، بَلْ نَزَعَ قَمِيصَهُ، وَفِي لَمْحِ الْبَصَرِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَوِّلَهُ إِلى صُرَّةٍ كَبِيرَةٍ، مَلَاهَا بِكُلِّ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدَاهُ مِنَ الْجَوَاهِرِ، ثُمَّ أَسْرَعَ بِالْخُرُوجِ وَنَادَى: « أَغْلِقْ يَا سمسم ».

وَضَعَ علي بابا الصُّرَّةِ الْمَلِيئَةَ بِالْجَوَاهِرِ عَلَى ظَهْرِ حِمَارِهِ وَغَطَّاهَا بِالْحَطَبِ، وَبَادَرَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْبَيْتِ، وَفِي الطَّرِيقِ كَانَ يَحُثُّ حِمَارَهُ على الإسراع في المشي، وَمِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ يَتَفَقَّدُ حِمْلَهُ الثَّمِين، وَالدُّنْيَا لَا تَسَعُهُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرحِ وَالابْتِهَاجِ.

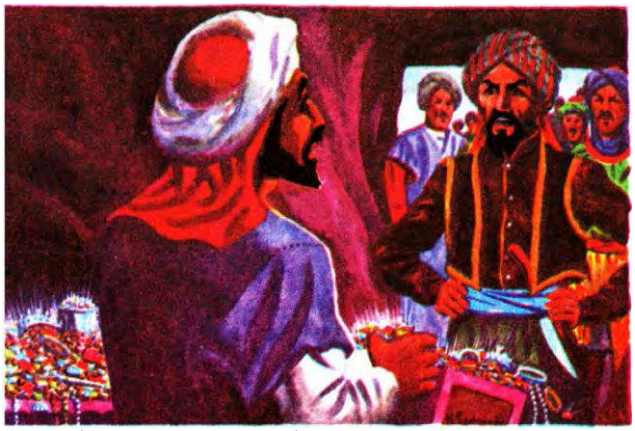

عاقبة الجشع

عِنْدَمَا رَأَتْ زَوْجَة علي بابا كُلَّ هَذِهِ الْمُجَوْهَرَاتِ، عَقَدَت الدَّهْشَةُ لِسَانَها وَ اضْطَرَبَتْ ثُمَّ تَمَالَكَتْ نَفْسَهَا وَسَأَلَتْ زَوْجَهَا: « مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذِهِ الْجَوَاهِرِ؟!».

فَأَجَابَهَا علي بابا: « اطْمَئِنِي، فَأَنَا لَمْ أَسْرِقْ هَذِهِ الكُنُوز، وَإِنَّمَا عَثَرْتُ عَلَيْهَا فِي كَهْفِ عِصَابَةٍ مِنَ اللُّصُوصِ »، ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: « بِئْسَ مَا فَعَلْتَ، لَقَدْ غَرَّتْكَ نَفْسُكَ فَأَخَذْتَ مَالاً لا حَقَّ لَكَ فِيهِ، إِنَّهُ مَالٌ حَرَام، لأَنَّكَ لَمْ تَكْسِبْهُ بِعَرَقِ جَبِينِكَ، فَارْدُدْهُ إِلَى مَكَانِهِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ »، فكّر علي بابا قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ: « حَقًّا إِنَّهُ مَالٌ حَرَام، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَحْتَفِظَ بِهِ حَتَّى نَعْرِفَ أَصْحَابَهُ الْحَقِيقِيِّينَ »، فَقَالَتْ زَوْجَتُهُ: « إِذَنْ لَابُدَّ أَنْ نُكَيِّلَ هَذِهِ الْمُجَوْهَرَات لِنَعْرِفَ مِقْدَارَها، اذْهَبْ إِلَى بَيْتِ أَخِيكَ قاسم وَاسْتَعِرْ مِنْهُ الْمِكْيَالَ ».

ذهب علي بابا إلى منزلِ أَخِيهِ وَطَلَبَ مِنْهُ الْمِكْيَالَ فَاسْتَغْرَبَتْ زَوْجَةُ قاسم هَذَا الطَّلَب وَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: « مَاذَا عَسَاهُ يُكَيِّلُ؟! »، ثُمَّ مَضَتْ وَوَضَعَتْ أَسْفَلَ الْمِكْيَالِ شَيْئًا مِنَ الصَّمْغ، وأعطته لعلي بابا طَالِبَةً مِنْهُ أَلا يَتَأَخَّرَ فِي إِعَادَتِهِ، كَالَ علي بابا كُلّ مَا لَدَيْهِ مِن مُجَوْهَرَاتٍ، وَلَمَّا أَرْجَعَ المِكْيَالَ إِلَى زَوْجَةِ أَخِيهِ، وَجَدَتْ فِي أَسْفَلِهِ بَعْضَ الْجَوَاهِرِ فَدَهِشَت، وَدَبَّت الْغَيْرَةُ فِي قَلْبِهَا، وَذَهَبَت تَجْرِي إِلَى زَوْجِهَا قَائِلَة: « انْظُرْ يَا رَجُل، إِنَّ أَخَاكَ الْفَقِيرِ صَارَ يَكِيلُ الْجَوَاهِرَ بِالمِكْيَالِ! ».

في الصَّبَاحِ فَصَد قَاسِم مَنْزِلَ أَخِيهِ، وَأَخَذَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ وَيَسْأَلُهُ عَنِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَصَلَ بِهَا عَلَى الْجَوَاهِرِ، فَلَمْ يَجِدْ عَلي بابا أَمَامَ إِلْحَاحِ أَخِيهِ قَاسم بُدًّا مِنْ أَنْ يُخْبِرَهُ بِكَهْفِ اللّصوص وَكَلِمَةِ السِّرِّ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُ وَعْدًا بِعَدَمِ الذَّهَابِ إِلَى ذَلِكَ المَكَانِ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ.

وَلَكِنَّ قَاسِما أَخْلَفَ وَعْدَهُ، إِذْ ذَهَبَ صَبَاحَ الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى كَهْفِ اللُّصُوصِ وَمَعَهُ عَشَرَةُ بِغَالٍ مُحَمَّلَةٍ بِصَنَادِيقَ فَارِغَةٍ لِكَيْ يَأْخُذَ كُلَّ أَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ، وَالْأَحْجَارِ الْغَالِيَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْكَهْفِ، وَقَفَ قَاسِم أَمَامَ الصَّخْرَةِ، وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِه: « افتح يا سمسم »، فَإِذَا بِالصَّخْرَةِ تَنْزَاحُ عَنِ الْمَدْخَل.

دَخَلَ قَاسِمٌ إِلَى قَاعَةِ الْمُجَوْهَرَاتِ فَبَهَرَ عَيْنَيْهِ بَرِيقُ الْجَوَاهِرِ، فَانْدَفَعَ يَجْمَع كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ يَدَاهُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَهَيَّا لِلْخُرُوجِ فَصَاحَ: « افتح يا ... افتح يا ... يَا لَلْمُصِيبَةِ، لَقَدْ نَسِيتُ كَلِمَةَ السِّرِّ »، ارْتَبَكَ قَاسِم وَأَخَذَ يُنَادِي: « افْتَحْ يَا فُول، افْتَحْ يَا شَعِير، افْتَحْ يَا حمص »، وَلَكِنْ بِدُونِ جَدْوَى، وَبَقِيَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ إِلَى أَنْ سَمِعَ وَقْعَ حَوَافِرِ خُيُولٍ تَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنَ الْكَهْفِ، فَأَيْقَنَ أَنَّهُم اللُّصُوص، فَازْدَادَ ارْتِبَاكُهُ وَيَئِسَ مِنَ النَّجَاةِ، ثُمَّ سَمِعَ صَوْتَ زَعِيمِهِمْ يُدَوِّي خَارِجَ الْكَهْفِ: « افتح يا سمسم » لَقَدْ تَذَكَّرَ الآن كلِمَةَ السِّر، وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ.

دخل اللصوص الكَهْفَ، وَمَا كَادُوا يَرَوْنَ قَاسِمَا حَتَّى هَجَمُوا عَلَيْهِ، وَقَطَّعُوهُ بِسُيُوفِهِم، وَعِنْدَئِذٍ أَمَرَهُمْ قَائِدُهُم أَنْ يَضَعُوهُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْكَهْفِ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالسَّطْوِ عَلَى مَخْبَئِهِم .

من ورقلة إلى غرداية

أَخَذْنَا مَقَاعِدَنَا فِي الْحَافِلَة حوالي الساعة السادسة صباحا وفِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّد، تَحَرَّكَتِ الْحَافِلَةُ تَشَقُّ شَوَارِعَ مَدِينَة وَرَقْلَة التي كان الْهُدُوءُ لَا يَزَالُ يُخَيِّمُ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَخَذَتْ تُسْرِعُ بَيْنَ أَشجار النَّخِيلِ الْمُصْطَفَةِ على حافتي الطريق، وكانت كُلُّ نَخْلَةٍ تَحْمِلُ عِقْداً من عَرَاجِينِ التَّمْر، وكَأَنَّهَا تَقُولُ لِكُلِّ مَنْ يَمُرُّ بها: انْظُرْ فَهَلْ تَجِدُ شَجَرَةً أَجْمَلَ مِنِّي؟ أَوْ ثَمَرَةً أَحْلَى مِن ثِمَارِي؟

وَعِنْدَمَا ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فِي الْأُفُقِ، وَبَدَأَتْ أَشِعَتُها تَسْطَع فَوْقَ الكُثْبَانِ الرَّمْلِيَّة، انْبَعَثَ فِي حافِلَتِنَا صَوْتٌ قَوِيٌّ مُؤَثِّرٌ لِفَتًى يُجِيدُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمِ.

كُنَّا قَدِ ابْتَعَدْنَا عن مدينة ورقلة بمَسَافَةٍ طَوِيلَة، وصِرْنَا نَسِيرُ على طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَرْتَفِعُ تَارَةً، وَيَنْحَدِرُ تَارَةً أُخْرَى، مُتّجها إلى الغَرْبِ وَسَطَ الصَّحْرَاءِ الْوَاسِعَة.

وتواصلت الرّحلة، وكُنَّا نَرَى من حين لآخَرَ لَافِتَةً بها صُورَةُ جَمَلٍ، وفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كُنَّا نَرَى فِي الْأُفُقِ حَفَّارَةً مِن حفاراتِ النِّفْطِ، وحَوْلَهَا مَجْمُوعةٌ مِن الْخَزَّانَاتِ الْكَبِيرَةِ الْبَيْضَاءِ، الّتي كانَتْ تَبْدُو لَنَا صَغِيرَةً من بعيد.

وبعد أن اسْتَغْرَقَ السَّفَرُ ساعتين، ظَهَرَتْ لَنَا عَلَامَاتُ الحَيَاة، وأَصْبَحَ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَرَى وَاحَةَ غرداية.

قَبْلَ أَنْ نَصِلَ إلى مدينة غرداية، تَوَقَّفَتِ الْحَافِلَةُ خَلْفَ أَحدِ التِّلال، حيث أُقِيمَ مَصْنَعٌ كَبِيرٌ لإنتاج الأنابيب، فَأُعْجِبْنَا بِمَنْظَرِ فِرْقَةٍ شَعْبِيَّة وقَفَتْ تَسْتَقْبِلُنا، وكان أَفْرَادُها يَرْتَدُونَ الْبِسَةً مُلَوَّنَةً أَو بَيْضَاء، ويُدِيرُونَ بَنَادِقَ ذَاتَ فُوَّهَاتٍ وَاسِعَةٍ فَوْقَ رُؤوسهم، ويَرْقُصُونَ رَقْصًا حَرْبِيًّا، تُصَاحِبُه دَقَاتُ الطُّبُولِ، وَأَنْغَامُ الْمَزَامِير، وفَجْأَةً يُوجِّهُونَ جَمِيعَ الْبَنَادِقِ إلى الأرض، فَتَنْطَلِقُ منها النِّيرَانُ دفعةً واحدةً، وتدوي دويًّا يُصِمُّ الآذان، ويُثِيرُ سَحَابَةً كَثِيفَةً من الدُّخان، وقد تَكَرَّر ذلك بِضْعَ مَرَّاتٍ أَثْنَاءَ مُشَاهِدَتِنَا لِأَقْسَامِ الْمَصْنَع.

وفي خِتَامِ زِيَارَتِنَا لِلْمَصْنَعِ تَنَاوَلْنَا مَشْرُوبَاتٍ مُنْعِشَة، ثُمَّ تحَرَّكَتْ بِنَا الْحَافِلَةُ نَحْوَ مَدِينَةِ غرداية، حيث قُمْنَا بِجَوْلَة عبر سوقِها الكبير وأَزِقَّتِهَا الضَّيِّقَة، ومَسْجِدِهَا الْعَتِيق.

وَبَعْدَ الظُّهْرِ قُمْنَا بِزِيَارَةِ "بَنِي يَزْقَنْ "، أحد أحياء المدينة، الْمُتَمَيِّزِ بِمَنَازِلِهِ الْبَسِيطة، ذاتِ السُّقُوف الْمُسَطَّحَة، وأُعْجِبْنَا بِمَسْجِدِهِ الَّذِي ظَهَرَ لِي أَنَّهُ أَجْمَلُ مَكَانٍ في هذه الأرض، وفي الْمَسَاءِ، أَخَذْنَا مَقَاعِدَنَا في الحافلة، وأسرعنا بالعودة إلى ورقلة، بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ هذه الرَّحلَةُ أَجْمَلَ الْأَثَرِ فِي نَفْسي .

الأَنْدَلُسُ الإِسْلَامِيَّة

أندونيسيا بلادٌ بَعيدَةٌ عَنَّا، تَفْصِلُنَا عَنْهَا أُلُوفُ الكِيلُومِتْرَات وَلَكِنَّهَا قَرِيبَةٌ إِلَى قُلُوبِنَا، وَقَدْ كَانَ الْوُصُولُ إِلَيْهَا فِي الْمَاضِي ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْمُغَامَرَة.

وَأَنْدُونِيسِيَا أَرْخَبِيلٌ يَزِيدُ عَدَدُ جُزُرِهِ عَلَى ثَلَاثَةِ آلاف جَزِيرَة، تنتشرُ فِي مِيَاهِ الْمُحِيطَيْنِ، الْهَادِي وَالْهِنْدِي، مِنْهَا الصَّغِيرَةُ وَالْكَبِيرَةُ، وَمِنْهَا الْمَهْجُورَةُ وَالْمَأهُولَةُ، يَعِيشُ عَلَيْهَا مِئَةٌ وَخَمْسُونَ مِلْيُون نَسَمَة، مُعْظَمُهُم فِي الْقُرَى الَّتِي يَزِيدُ عَدَدُهَا عَلَى سِتِّينَ أَلْفَ قَرْيَة، وَالْقِلَّةُ الْقَلِيلَة تَعِيشُ فِي الْعَاصِمَةِ وَالْمُدُنِ الرَّئِيسِيَّة.

وَتُعْتَبَرُ أَنْدُونِيسِيَا الدَّوْلَةَ الْخَامِسَةَ بَيْنَ دُوَلِ الْعَالَمِ مِنْ حَيْثُ الْكَثَافَةُ السُّكَانِيَّة، بَعْدَ الصِّينِ، وَالْهِنْدِ، وَرُوسِيَا، وَأَمْرِيكَا، وَيَدِينُ أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ وَخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ مِلْيُونًا مِنْ مَجْمُوعِ سُكَانَ أَنْدُونِيسِيَا بِالدِّينِ الإِسْلامِيِّ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَكُونُ أَكْبَرَ بَلَدٍ إِسْلَامِي فِي الْعَالَمِ.

لَقَدْ وَصَلَ الإِسْلَامُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ النَّائِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ التُّجَّارِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا أَوَّلَ مَا وَصَلُوا إِلَى الطَّرَفِ الشَّمَالِي مِنْ جَزِيرَة (سُومَطْرَة) وَمَعَهُمْ دِينُهُم الْحَنِيفُ وَتَعَالِيمُهُ السَّمْحَة، ثُمَّ انْتَشَرَ الإسلام في جَمِيعِ الْجُزُرِ الأندونيسيّة.

وَيُوجَدُ بِعَاصِمَتِهَا جَاكَرْتَا مَسْجِدُ الاسْتِقْلَالِ وَهُوَ أَكْبَرُ مَسْجِدٍ فِي الشَّرْقِ الأَقْصَى، وَقَدِ اسْتَغْرَقَ بِنَاؤُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا وَيَسَعُ هَذَا الْمَسْجِدُ مِئَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُصَلِّين .

لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ الأَنْدَلُس، سَاسُوا أَهْلَهَا سِيَاسَةً رَشِيدَةً، بُنِيَتْ عَلَى التَّسَامُحِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ، وَلَمْ يَمْضِ إِلَّا زَمَنٌ يَسِيرٌ عَلَى الْفَتْحِ حَتَّى أَخَذَ الْفَاتِحُونَ فِي تَخطِيطِ الْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ الْقُصُورِ، وَحَفْرِ التُّرَعِ، وَإِقَامَةِ الْجُسُورِ، وَتَعْبِيدِ الطُّرُقِ، وَتَهْيِئَةِ الأَرْضِ لِلزِّرَاعَةِ، وَغَرْسِ كَثِيرٍ مِنَ الأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَات.

وَكَانَ بِالأَنْدَلُسِ أَيَّامَ الْعَرَبِ جَامِعَاتٌ بِقُرْطُبَة، وَإِشْبِيلِيَّة، وَمَرْسِيَّة، وَطُلَيْطِلَة، وَغِرْنَاطَةُ، كَمَا كَانَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ الْمُكْتَظَّةِ بِالطَّلَبَةِ الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَة.

وَطَالَمَا احْتَاجَ أُمَرَاءُ الْبِلَادِ الْمَسِيحِيَّةِ الْمُجَاوِرَةِ للأَنْدَلُسِ الإِسْلَامِيَّة إِلَى طَبِيبٍ، أَوْ مُهندس، أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمِهَنِ، وَوَجَّهُوا طَلَبَهُم إِلَى قُرْطُبَة.

وَلَقَدْ كَانَتْ قُرْطُبَةُ زَهْرَةَ الْبِلَادِ فِي أُورُبَّا، بِمَا جَمَعَتْهُ مِنْ مَظَاهِرِ الثَّقَافَةِ وَالْعُمْرَانِ، وَقَدْ زَهَتْ بِشَوَارِعِهَا الَّتِي كَانَتْ تُضَاءُ بِقَنَادِيلَ تُطِلُّ عَلَيْهَا مِنَ الْمَنَازِلِ، وَلَمْ يَكُنْ يُوجَدُ فِي عَوَاصِمِ أُورُبَا قِنْدِيلٌ عُمُومِيٌّ وَاحِدٌ إِلَّا بَعْدَ ذَلِكَ بِسَبْعِ مِئَةِ سَنَة.

وَمِنْ آثَارِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِالأَنْدَلُسِ، قَصْرُ الْحَمْرَاء بِغرْنَاطَة، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مُرَكَّبٍ يَتَأَلَّفُ مِنْ قَلْعَةٍ وَقُصُورٍ وَحَدَائِق، وَقَدْ شُيِّدَ عَلَى هِضَابٍ تُحِيطُ بِهَا قِمَمٌ عَالِيَةٌ، وَحُصِّنَ بِأَسْوَارٍ غُطِّيَتْ بِالْمَرْمَرِ.

وَيَشْمَلُ قَصْرُ الْحَمْرَاءِ عِدَّةَ قَاعَاتٍ وَأَبْهَاء، أَشْهَرُهَا بَهْوُ السِّبَاعِ الَّذِي يَبْلُغُ طُولُهُ ثَلَاثِينَ مِتْرًا، وَعَرْضُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ.

وَحِينَ يَسِيرُ الزَّائِرُ بَيْنَ أَرْوِقَتِهِ، الَّتِي قَامَتْ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ عَمُودٍ مَرْمَرِي، يَقِفُ مَشْدُوهًا بِتَنَاسُقِهَا الْجَمِيلِ، وَنُقُوشِهَا الرَّائِعَة.

وَلَعَلَّ أَبْرَزَ مَا فِي الْبَهْوِ النَّافُورَةُ الَّتِي تَجْمَعُ اثْنَي عَشَرَ أَسَدًا من المَرْمَرِ الأبيض، يَقْذِفُ كُلٌّ مِنْهَا الْمِيَاهَ مِنْ فَمِهِ.